التصوف حقيقته وفائدته

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

يظن بعض الناس أن التصوف خيالات باطلة وأوهام فاسدة وأنه آراء معتلة أو خرافات مضلة وأنه يضر أكثر مما ينفع فهو يدعو إلى التواكل وترك الأســـباب ويزعم ذلك توكلا مع أن الله قد ربط بين الأسباب ومسبباتها وجعل لكل شيء سببا فمن ترك الأسباب لم يدرك المسببات ، والأمة التي لم تعرف أسباب العز والتقدم والقوة والمنعة ولم تأخذ بها محكوم عليها بالتأخر والبعد عن العزة والتقدم بقدر ما تجهل من أسبابها وتدع من عللها .

هؤلاء قد أخطأوا فهم التصوف وغمطوه حقه ، ووضعوا منه عاليا وبدلوا زينه شينا وقد جاءهم هذا من أدعياء التصوف الذين خاضوا فيه بغير علـــم ، ورأوا عليهم بعض ما ينكرون ، ولم يعلموا أن كل صنعة إن دخلها من ليس منها أفسدها وشوهها وبدل حقها باطلا وصلاحها فسادا .

وسنحاول هنا الكشف عن أصله وحقيقته وماذا كان يعني به العلماء المتقدمون المشهود لهم بالصلاح والتقوى ، ونبين أن هذه الحقيقة التي عناها هؤلاء العلماء الأعلام سامية كل السمو ، نافعة كل النفع ، وأنه لا غنى للفرد والأمة عنها وأن الأمة التي تفرط فيه يصيبها من الانحطاط والتأخر بقدر ما فرطت فيه ، بل إننا سنزيد ونرى أنه عمود الدين ولبه وأنه حقيقته وجوهره .

عرف المتقدمون التصـــوف بأنه الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دني .

وقال الكتاني : التصوف هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء .

ويقول بعضهم علم السلوك هو معرفة النفس مالها وما عليها من الواجبات ويسمى بعلم الأخلاق وعلم التصوف .

وقال ابن القيم فى مدارج السالكين ، واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق .

وقال أيضاً إن هذا العلم مبنى على تفاصيل وأحكام الارادة ، وهى حركة القلب . ولهذا سمى علم الباطن كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سمى علم الظاهر .

وقال الجنيد : التصـــوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسية ، وحيازة الصفات الروحانية . والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول ﷺ فى الشريعة .

وإذن فالتصوف على ما يفهم ما قدمناه من كلام العلماء العارفين بحقيقته الممارسين له عبارة على علم تهذيب النفس الانسانيه والعمل على تخلى هذه النفس عن الأخلاق المذمومة وتحليها بالأخلاق المحمودة .

وهذا هو لب الشرائع وأسمى عمل النبيين والمرسلين كما قال الرسول « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وأى شىء أسمى من علم يحيل النفس الانسانيه الشريرة إلى نفس طيبة خيرة ، وأى شىء أسنى مما يطهر النفس من أدرانها ويحيها بفضائلها .

انه أغلى وأشرف من حجـر الفلاسفه ، وهو الإكسير الذى يحول النحاس إلى ذهب فيما يزعمون لأن قصارى هذا الإكسير أن يحول حجر دنيئا إلى حجر شريف ، أما هذا العلم فهو يحول نفساً دنيئة إلى نفس شريفه ، والفرق بين الإكسيرين يبين معه الفرق بين عملهما فشتان بين ما يعمل فى حجر وبين ما يعمل فى نفس إنسانيه وشتان بين ما يحيل النحاس إلى ذهب وبين ما يحيـل النفس الانسانيه الشريرة إلى نفس خيرة نافعه فى الدنيا ناجيه فى الآخرة .

التصوف إذن هو بمنزلة علم الأخلاق عنـد الفلاسفه الذى هو فرع الفلسفه العمليه التى تشمل الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وتدبير المدينة الذى هو علم السياسه ، ومباحث التصوف ومباحث عـــــلم الأخلاق عند الفلاسفه كثيراً ما تتحد لاتحادها فى الغرض وهو تهذيب الأخلاق .

والتصوف يرى أن الغرض المقصود منه وهو اكتساب الأخـــلاق الفاضلة وتنحية

الأخلاق الرذيلة لا يتم بمجرد العلم ولا بقراءة الكتب وإنما يحتاج فوق ذلك إلى مجاهدة النفس ورياضتها على اكتساب الخلق الجديد ، ونبذ الخلق القديم ، وبالجملة يحتاج إلى رياضة شديدة ومؤنة صعبة كذلك علم الأخلاق عندالفلاسفة يرى ذلك قال ارسطوطاليس فى كتاب الأخلاق :

« شيء لا يغرب عن النظر وهو أن هذا المؤلف الأخلاقى ليس نظرياً محضا كما قد يكون الشأن فى كثير سواه ، فليس لأجل العلم بما هى الفضيلة أن أوغلنا فى هذه الأبحاث ، بل من أجل أن نتعلم كيف نصير فضلاء وأخيارا لأنه إن لم يكن كذلك صارت هذه الدراسة عديمة الفائدة أصلا ، فمن الضرورى إذاً أن نعتـــبر كل ما يتعلق بالأفعال لتتعلم إتيانها ، لأنها هى صاحبة السلطان فى التصرف فى خلقنا وفى اكتساب ملكاتنا كما قدمنا آنفا » .

وقال فى موضع آخر من الكتاب نفسه .

(١) إذا كنا قد حددنا قدر الكفاية فى هـــذه الرسوم والنظريات التى أتينا عليها ونظريات الفضيلة والصداقه واللذة ، فهل تظننا الآن قد أتممنا كل مشروعاتنا ؟، أم هل أولى بنا أن نظن كما قلته أكثر من مرة أن فى الشئون العملية ليس الغرض الحقيقى هو التأمل والعلم نظرياً بالقواعد علماً تفصيليا بل هو تطبيقها .

٢ ــ ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ما هى بل يلزم زيادة على ذلك رياضه النفس على حيازتها واستعمالها أو إيجاد وسيلة أخرى لتصيرنا فضلاء وأخيارا .

٣ ــ لو كانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخيارا لاستحقت؟كما يقول ديوغنيس ــ أن يطبعها كل الناس وأن نشترى بأغلى الأثمان وما يكون على المرء إلا اقتناؤها ، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادىء فى هذا الصدد ، هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات فى الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقا للفضيلة وفيا بعهدها .

واستمداد التصوف من الكتاب والسنة ، وعمل الخلفاء الراشدين ، وتجارب النفس الانسانيه ومراقبتها .

وأن كل ما فيه من علاج للنفس وتربية لها ، والحمل عليها هو أصل فى الشريعة

تذكر لنا يوم ما يراه الصوفيه من إماتة النفس ورفضها إذا مالت إلى جانب الشر ، وتعجب هل لذلك أصل فى الشريعة ؟ فحضرنا ما قصه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،

وذلك أنه نادى الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب فأظل اليوم وأى يوم . فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك ، فقال عمر رضى الله عنه : ويحك يا ابن عوف إنى خلوت فحدثتنى نفسى أنك أمير المومنين ، فمن ذا أفضل منك ، فأردت أن أعرفها نفسها .

وكما جاز ذلك فى الشرع حسما لمواد الكبر ، وقطعا لذرائع الإعجاب ، وكسرا لاسراف النفس ، وتذليلا لسطوة الاستعلاء ، يجوز أيضا لتطمين الجليس ، وإزالة الرهبة عنه روى قيس بن حازم أن رجلا أتى به للنبى صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : هون عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد .

وأما ألقوا كل وترك الأسباب وجعل ذلك دينا ، فليس من الدين فى شىء ، وكيف يخالج أحداً الشك فى ذلك وهو يرى الشريعة طافحه بالأمر بالأخذ بالأسباب والاستعانه بالشىء على الشىء .

يقول الله تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .

والقوة ورباط الخيل من أسباب النصر ، وقد أمر الله بها وأكد فى رعايتها ، ويقول : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ويقول « وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

ويقول يأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تعلمون »

وورد ان النبى ﷺ ظاهر بين درعين فى الحرب مبالغة فى التوقى والاخذ بأسباب الوقاية

فمن قال بخلاف ذلك فقد أخطأ وخطؤه عليه ولا يحسب خطؤه على التصوف والصوفية هذا هو التصوف فى نقائه وصفائه وروعته وبهائه لعمرى لقد نقيته من أدرانه وخلصته من شوائبه فبدا فى ابهى حلله وأكمل زينته

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك أن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا بكاء كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف ان تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا
وان ترى خاشعا لله مكتئبا على ذنوبك طول الدهر محزونا

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

لجنة نشر الأصول الصوفية

تصدر قريبا

كتاب اللمع لأبى سراج الطوسى

أكبر موسوعة علمية فى تاريخ التصوف الإسلامى ورجاله ، وعلومه ، وآدابه ومناهجه ، ومقاماته ، ودقائقه ، ورقائقه ، وأسراره ، ورسالاته .

حققه وقدم له وعلق عليه

الأستاذان الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور

بتأييد وتشجيع

من مشيخة الطرق الصوفية

الناشر : المكتبة العلمية ٦ شارع الجمهورية والألفى عمارة الطويل بالقاهرة